دَعْوَى المَهْدَوِيَّةِ: العَوَامِلُ وَالآثَارُ

سيد أحمد مهدي
جامعة الجزائر1

بسم الله، والحمد الله، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه. وبعدُ..

فيتزاحم المدعون على الرتب الرفيعة، يتشبعون بالألقاب الفخمة، لاسيما ما كان منها يجمع شرف الدنيا والآخرة، ويوطئ لجاه وملك، ويسيّر أتباعا يملؤون الأفق، ويبوئ من مدونات التاريخ الصفحات الغراء.

و"المهدوية" من هذه الرتب، التي طمحت إليها الهمم، وشمخت إليها الأبصار، فلا يكاد يخلو قرن، بل عام –لمن تتبع الأخبار في الأمصار– من جملة من الناس يصدعون بها.

وسواد أولئك المدعين وجمهورهم "حوادث معزولة"، لا تقتضي من رد الفعل العلمي والطبي والسلطاني إلا الإعراض، والعلاج، وكف اليد.

لكن في بطون الأمهات –قديما–، وفي طليعة الأحداث –حديثا–، أخبار متمهدين، أرسلوا على الأمة سيل دماء عرم، وأزالوا الممالك، وأوردوا المهالك، وشرعوا الشرائع، فاستنزفوا طاقات الأمة الفكرية والأمنية والاقتصادية، ما لو بذل معشار عشره في التوقي، وإجهاض فكرة التمهدي قبل أن تتخلق، لصرف عن الأمة شراكثيرا. فدعوى المهدوية ظاهرة، لها عوامل تنشئها، وتسرعها، وتعين عليها.

ولها آثار، تتبعها، وتقفو ذيلها، قلما تتخلف عنها. ومَن فَقِه العامل في هذه الدعوى وعَقِله، وأبصر الأثر فهابه وخشيه، نهض –بحسبه– في مواجهة الآبدة بعلم وحزم.

لأجل هذا اقتُرِح هذا المقال، الذي يتتبع –باستقراء نسبي بُذل فيه الوسع– أخبار المتمهدين في التاريخ الإسلامي، ممن كان لهم ذكر وخبر وأثر في الدواوين والأحداث، ويستل من أيامهم وأحوالهم العوامل التي جرأتهم على هذه الدعوى، ويستنبط منها النتائج المكرورة والسنن المطردة، ليخلص بعدها إلى توصيات لمواجهة ظاهرة دعوى المهدوية في الأمة الإسلامية، مجيبا على الإشكالية الآتية:

"ما العوامل المعينة ابتداء واستمرارا على دعوى المهدوية، وما أثر هذه الدعوى على المدعي ومحيطه؟"

ولا بد لهذا من تحديد ضابط "دعوى المهدوية"، ثم سرد المتمهدين وفق الشرط الذي بين أعلاه، ثم استنباط العوامل فالآثار، ثم الخلوص إلى توصيات في هذا المضمار. والكلام عن دعوى المهدوية، وأسبابها وآثارها، مفرق في كتب أهل العلم والباحثين والمؤرخين، وقد نقلت نبذا منه في هذا المقال، ناشدا الجمع والترتيب، والتحرير والتعقيب،، ليتم المقصود، والله تعالى الموفق الهادي إلى سواء السبيل.

تمهيد: ضابط دعوى المهدوية

"المهدي" اسم مفعول من هدى، و"هديت القوم الطريق .. أهديهم هداية ، فأنا هاد، وهم مهديون: أي عرفتهم إياه ودللتهم عليه."[ix] ويستعمل في "الذي قد هداه الله إلى الحق، وقد استعمل في الأسماء حتى صار كالأسماء الغالبة، وبه سمي "المهدي" الذي بشر به النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه يجيء في آخر الزمان".[ix] وبيانه في الشرع يدرك بتدبر الأحاديث الثابتة التي وردت فيه، وأهمها مما جاء فيه ذكر المهدي صراحة حديث أبي سعيد الخدري[ix] وحديث علي[ix] وحديث أم سلمة [ix] وحديث جابر [ix] وحديث أبي هريرة[ix]. ثم وردت أحاديث أخرى غير صريحة في قصد "المهدي"، ولكن تتبع العلماء ما جاء في الصريح، وربطوا بين الوقائع والأوصاف، فنزلوها على "المهدي"، فمن ذلك: حديث جابر بن سمرة [ix] وحديث عبد الله بن مسعود.[ix] وخلاصة ما ورد من ذكر" المهدي"، ووصفه، وظروف خروجه، ومهمته، ومدة مكثه من هذه الأحاديث:

أنه محمد بن عبد الله العلوي الفاطمي، رجل أجلى الجبهة أقنى الأنف (وهو ارتفاع في أعلاه بين القصبة والمارن من غير قبح)[ix]، ينشأ في مرحلة تسود فيها بين البشرية الفتن والفساد والظلم، فيصلحه الله تعالى في ليلة لينتقل مما كان عليه إلى الرشد والتوبة والسداد والصلاح، وييسر عليه فيها أمر الإمارة والخلافة [ix]، فيجتمع عليه الناس في أشد فتنة تمر بها البشرية، وهي خروج الدجال، ويكون هو الخليفة القائد، ويؤيده الله تعالى بعيسى عليه السلام الذي ينزل في وقت إقامة الصلاة، فيصلي وراءه، كرامة له ولهذه الأمة، وينتصر معه على الدجال، وتعيش البشرية بعده حياة عامرة بالعدل والبركة والسخاء ، وتدوم مدة خلافته بين خمس سنين وتسع سنين ثم يتوفاه الله تعالى.

وهذه الأحاديث كافية في تصور لمحة عن "المهدي" ومسيرته، ونافعة للتمييز بين "المهدي" الحق وغيره من الأدعياء الذي ادعوا هذه المرتبة، فضابط قذف المرء بأنه مدع للمهدوية، هو:

1–ضابط خَلقي و اسمي ونسَبي: كأن يخالف الصفات الخَلقية الثابتة في وصفه من جلاء الجبهة وقنا الأنف، وبأن لا يكون اسمه محمد بن عبد الله، وبأن لا يكون من ذرية فاطمة رضي الله عنها.

2–ضابط خُلقي سلوكي: بأن لا يكون حاله وفق ما ذكر في الأحاديث من الصلاح بعد تقدم غيره، وبأن لا يسير في الأمة بالعدل المنشود.

3–ضابط ظرفي: وهو أقواها وأصرحها في القذف بالدعوى، وهو الذي يبين به العلماء –غالبا– أحوال المتمهدين[ix] ، من مخالفة أحوال زمان المتمهدي لما ورد من في الأحاديث، من تقدم خروج الدجال، ومصادفة نزول عيسى عليه السلام، ومن اجتماع الأمة في ليلة على "المهدي" وغير ذلك.

وينبه إلى أن مبنى هذا المقال على هذا المذهب في" المهدي" الذي ترجحه الأحاديث الثابتة، أي إثبات "مهدي" مبهم العين، معلوم الأوصاف، فيخرج من محل النزاع المنكرون لخروج "المهدي"[ix] والمعينون لشخصه دون تحقق ظروف ظهوره [ix].

المطلب الأول: المدعون للمهدوية

وههنا سرد لِعيّنة من المدعين للمهدوية مع ذكر تراجمهم مختصرة مرتبين حسب تواريخ الوفاة، وفق المعايير التي حددت في المقدمة والتمهيد[ix]:

الأول: محمد النفس الزكية. محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الملقب بالنفس الزكية، كان من أفضل أهل زمانه علما وجودا، خرج بالمدينة على بني العباس فبايعه أهلها وتلقب بالمهدي [ix]، قتل سنة 145 هـ[ix] .

الثاني: صالح بن طريف البرغواطي من ملوك البربر ، تنبأ فيهم وشرع لهم ديانة، ، وعهد إلى ابنه إلياس بها ثم خرج إلى المشرق، وزعم أنه يعود إليهم في دولة السابع من ملوكهم، وزعم أنه" المهدي" الذي يخرج في آخر الزمان ، هلك سنة 175 هـ[ix].

الثالث: صاحب الزنج علي بن محمد بن عبد الرحمن العبدي، زعم أنه من ولد زيد بن علي، ظهر بالبصرة وشجاعا ذكيا، ثار فلحق به اللصوص والعبيد وكاد أن يملك بغداد، كان يدعي أنه "المهدي"، ارتكب مجازر شنيعة، قتل سنة 270 هـ. [ix]

الرابع: ابن القِطّ أحمد بن معاوية بن محمد بن هشام المعروف بـ"ابن القط"، من بيت الخلافة الأموية في الأندلس. كان أديبا عالما بالهيئة والنجوم، شجاعا. ثار وزعم أنه "المهدي"، فاجتمع حوله نحو ستين ألفا أكثرهم من البربر، فهاجم بهم الإفرنج يدعوهم إلى الإسلام، فخُذل، وثبت هو في من بقي معه إلى أن قتل سنة 288 هـ[ix].

الخامس: الحلاج الحسين بن منصور الحلاج الزاهد المشهور، أصله من فارس، ونشأ بالعراق، وصحب أبا القاسم الجنيد وغيره، اختلف الناس في أمره جراء شطحاته وأقوال له، أظهر الزهد والتصوف والكرامات فافتتن به خلق كثير واعتقدوا فيه الحلول؛ ادعى تارة أنه "المهدي" وتارة أنه إله، هلك قتلا بعد أن الفتوى بحل دمه، سنة 309 هـ[ix].

السادس : عبيد الله الفاطمي عبيد الله أبو محمد، أول من قام من الخلفاء العبيديين، ادعى أنه فاطمي من ذرية جعفر الصادق، وطعن المحققون في نسبه، أشاع أنصاره أنه "المهدي" فأقر وبعث داعيين له، أبا عبد الله الشيعي بالمغرب، وأخاه أبا العباس باليمن، فاستحكم أمر أبي عبد الله بالمغرب وظهر على حاكمه، وتبعه خلق من البربر، فهيأ لعبيد الله الأمر وبويع، ودعي له بالخلافة في القيروان سنة 297هـ ثم انقلب على داعييه فقتلهما، هلك سنة 322 هـ [ix].

السابع: الحسين بن القاسم بن على لم أقف له على ترجمة، وهو أحد الخارجين على حكام صنعاء، وادعى أنه "المهدى" الذى بشّر به النبى صلى الله عليه وسلم، فأجابته حمير وهمدان وغيرها من القبائل، وكانت له مع مخالفيه وقائع حتى قتل سنة 404 هـ. [ix]

الثامن: بليا منجم خرج بالبصرة سنة 483 هـ واستغوى خلقا من أهلها وزعم أنه "المهدي"، وأحرق وأتلف من البصرة شيئا كثيرا، من ذلك دار كتبها وكثيرا من الدواليب والمصانع، قبض عليه وصلب ببغداد سنة 484 هـ [ix].

التاسع: عبد الرحمن بن تومرت محمد بن عبد الله بن تومرت البربري، المدعي أنه حسني وأنه "المهدي"، رحل من السوس إلى المشرق فحج وتفقه، كان أمارا بالمعروف نهاء عن المنكر، ألف "المرشدة" في العقيدة ، وسعى للسلطنة في حزم مظهرا الخوارق، وسمى أصحابه بالموحدين، وهو أصل دولتهم، وعهد عند موته لعبد المؤمن بن علي، هلك سنة 524 هـ[ix].

العاشر: ابن قَسِّي أحمد بن الحسين بن قسي، ثائر بالأندلس، رومي الأصل، كان موظفا حكوميا ثم تزهد وساح في البلاد، مع إضماره الثورة، ادعى المهدوية، وطُلب فاستخفى وكانت له مع المرابطين وقائع، وآلت حاله إلى أن هاجر إلى الموحدين متبرئا من دعاويه وتائبا مما أسلفه فاستعملوه، ثم عاد فخالف، فقتل عام 546هـ[ix].

الحادي عشر: ابن أبي عمارة أحمد بن مرزوق، ثائر بالمغرب، أصله من بجاية، لحق بصحراء سجلماسة فادعى أنه من آل البيت وأنه "المهدي"، فأعرض البدو عنه، فادعى أنه ابن أحد ملوك الحفصيين فصُدِّق، وبويع بالخلافة. وكثر جمعه فاستولى على طرابلس وقابس وغيرهما، ثم آل أمره إلى الهزيمة فقتل ومثل به سنة 683 هـ. [ix]

الثاني عشر: تمرتاش بن النوين جوبان حاكم البلاد الرومية مفتتح شجاع مقدام، كانت له وقائع مع ملوك زمانه، خطر له أنه هو "المهدي"، ولما بلغ أباه ذلك رده عن ذلك الاعتقاد، قتل في 728 هـ. [ix]

الثالث عشر: الملثم أحمد بن عبد الله بن هاشم أبو العباس المعروف بالملثم، اشتغل بالفقه ولزم ابن دقيق العيد عشرين سنة، ثم سلك طريق العبادة، فحصل له انحراف مزاج فادعى أنه "المهدي" فاشتهر أمره فأخذ وحبس، واتفقوا على شنقه فأرسل إليه ابن دقيق أن يظهر التجانن ففعل وأطلق، ثم نجا من محاولات اغتيال عديدة، جمع كتابا كبيرا بث فيه الأحوال التي اتفقت له ودعاواه، وغالبها منامات، وقيل أنه تاب عن دعواه المهدوية، توفي سنة 740 هـ[ix]

الرابع عشر: محمد بن أحمد الفرياني الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد الفرياني المغربي متولي قضاء نابلس شافعيا سنة 837هـ، بعد أن تخلى عن مذهب مالك، ادعى أنه "المهدي" سنة 848 هـ في بعض الجبال فانضم إليه جماعة.... وكان قد قدم القاهرة قديماً وواظب الجولان في القرى يذكّر الناس، راج أمره في ذلك دهراً ثم قبض عليه وأرسل إلى القاهرة [ix].

الخامس عشر: محمد بن فلاح المشعشع محمّد بن فلاح بن هبة الله، المتوفى سنة 866 هـ من سلالة الإمام موسى الكاظم، أول سلاطين دولة المشعشعين، ولد بواسط، وتفقه بعلوم الشيعة الاثني عشرية، وحذق الشعوذة وادعى أنه "المهدي"، فتبعه بعض الأعراب واستولى بهم على الحويزة (بين واسط والبصرة)

وقاتلته جيوش بغداد، فانخذل، ثم ظفر وعظم أمره، وأطاعه أكثر عرب العراق، وجعل الحويزة قاعدة لسلطنته، ومات بها [ix].

السادس عشر: القوهستاني محمد نوربخش القوهستاني المتوفى سنة 869 هـ ، صوفي تعرف طريقته بالنوربخشية، يدعي الاثنا عشرية أنها فرقة من فرقهم، وقد ادعى المهدوية لنفسه، وطبق الأحاديث الواردة عن طريق أهل السنة في اسم "المهدي" وكنيته على شخصه، وأنكر "مهدي" الشيعة وانفصل عنها [ix].

السابع عشر: محمد بن يوسف الجونبوري محمد بن يوسف الحسيني الجونبوري ، ولد بجونبور من مدن الهند، وحفظ القرآن واشتغل بالعلم، ولقب بأسد العلماء لنجدته وجرأته، اشتغل بالدرس والإفادة، وأخذ الطريقة عن شيخه، واجتهد في الرياضة، ساح مدة طويلة وادعى في أثناء السفر المهدوية مرات كثيرة ، وكفر من لم يؤمن به، تنقل بين مدن الهند واعظا، والتف حوله الناس وبايعه خلق كثير وكانت له مع العلماء والحكام وقائع، هلك سنة910 هـ، فانتشر أصحابه في الآفاق واجتهدوا في الدعوة إلى طريقته ودخل الناس فيها، وبقيت بقيتهم إلى يومنا هذا [ix].

الثامن عشر: يحيى السويدي يحيى بن يحيى السويدي الزرهوني ثائر قدم من المغرب، قام في تاجوراء بطرابلس عام 995هـ ، فقتل الكثير من أهلها وجبى الأموال، وادعى أنه "المهدي"، وخرب زاوية عبد السلام الأسمر بزليتن، تحالف مع منظمة فرسان القديس يوحنا التي احتلت ليبيا، وكان آخر أمره أن قتل في الصحراء طريدا [ix].

التاسع عشر: ابن أبي محلي أحمد بن عبد الله السجلماسي العباسي الفيلالي أبو العباس، المعروف بابن أبي محلى، ثائر متصوف، ادعى أنه "المهدي"، طلب العلم بفاس وكثر أتباعه، فذهب إلى جنوب المغرب، مكاتبا رؤساء القبائل يحضهم على الاستمساك بالسنة ويشيع أنه "المهدي" ويقول أنه من سلالة العباس بن عبد المطلب، كان يحرض على الجهاد الإسبان. زحف على سجلماسة فاستولى عليها بعد قتال، فأظهر العدل واستولى على مراكش. فقام عليه متصوف آخر فقتله، وزعم أصحابه أنه لم يمت وإنما تغيب، توفي سنة 1022 هـ [ix].

العشرون: أحمد بن علي المحيرثي كان نبيها أحاط بعلوم جمة، تفقه على المذهب الزيدي ثم قرأ كتب الحنفية، وولي القضاء بصنعاء على المذهب الحنفي، اختلط في آخر عمره لكثرة اشتغال ذهنه، وكان يذكر أنه "المهدي"، توفي بمكة سنة 1050 هـ[ix].

الحادي والعشرون: الفوطي محمد بن علي الحيداني المعروف بـ"الفوطي"، ادعى المهدوية سنة 1061 هـ في بلاد اليمن وكفر جميع المسلمين إلا من وافق مذهبه، قاتله حكامها وهزم، وكان مما جرأه على التمهدي زعمه أنه قرأ اسمه في "الجفر"[ix].

الثاني والعشرون: الباب على محمد الشيرازي، الهالك سنة 1266 هـ مؤسس "البابية"، إيراني ولد بشيراز، نشأ يتيما، وتعلم مبادئ القراءة بالعربية والفارسية، وتلقى شيئا من علوم الدين، وتقشف، فكان يمكث في الشمس ساعات عديدة، وأثّر ذلك في عقله. ولما بلغ الخامسة والعشرين جاهر بعقيدة تلفق بين أديان شتى، ولقب نفسه بـ"الباب" متأولا حديث " "أنا دار الحكمة وعلي بابها" [ix]، وتبعته جماعة كبيرة، فأذاع أنه " المهدي " وقام علماء بلاده يفندون أقواله ويظهرون مخالفتها للإسلام، وخشيت حكومة إيران الفتنة فأعدمته، له مصنفات، منها كتاب " البيان " [ix].

الثالث والعشرون :المهدي بن شرادي من قبيلة الشراردة العربية الساكنة غرب مراكش، كان على رأس زاوية أبيه، اختلف مع بعض عمال السلطان المغربي، فأغار عليه جنوده، وكانت له معهم وقائع كادوا أن يخلصوا فيها إلى السلطان، وادعى المهدوية، لكنه هزم وفر، ثم رجع تائبا، فعفي عنه، وولي، توفي سنة 1293هـ.[ix]

الرابع والعشرون: بومعزة محمد بن عبد الله، أصله من أولاد خويدم بناحية وادي الشلف، ، ثار على قائد قبيلة سنجاس حتى قتل، فتزعمهم بومعزة أظهر التنسك والخوارق، وادعى أنه "المهدي"، غزا الجيش الفرنسي فهزم تارة وظفر أخرى، والتحق بالأمير عبد القادر ثم انفصل عنه ولجأ إلى الصحراء، وادعى المهدوية تارة أخرى، وواصل جهاده للفرنسيين حتى أسر وتنقل في سجون فرنسا ثم عفي عنه، وتطوع في صفوف الجيش التركي وتنقل في البلاد حتى لحق بالأمير عبد القادر بالشام، ثم رجع إلى باطوم بجورجيا وبها توفي (كان حيا 1878م) [ix].

الخامس والعشرون: المهدي السوداني محمد أحمد بن عبد الله، المهدي السوداني، المتوفى سنة 1302 هـ، ثائر، من أسرة شريفة، حفظ القرآن وتفقه وتصوف، ثم انقطع في جزيرة في النيل خمسة عشر عاما للعبادة والتدريس، وكثر مريدوه. وممن تبعه عبد الله التعايشي فعضده وبايعه على القيام بدعوته. وأعلن الجهاد على الإنجليز مدعيا أنه "المهدي"، وكتب إلى فقهاء السودان يدعوهم لنصرته. اشتبك مع حكام مصر، وكان له معهم منازلات ظفر بكثير منها، وكان فطنا فصيحا قوي الحجة، توفي بالجدري بعدما أوصى بالخلافة من بعده لعبد الله التعايشي، وقد واصل أبناء المهدي وأحفاده مسيرته في إنشاء دولته وبسط نفوذ عقيدته، وأنشؤوا بعد ذلك الأحزاب السياسية [ix].

السادس والعشرون: البهاء حسين علي نوري بن عباس بن بزرك، الملقب نفسه بـ"بهاء الله"، إيرانيّ مستعرب، رأس "البهائية" ومؤسسها، ادعى المهدوية والنبوة والألوهية، من أسرة ظهر فيها وزراء وعلماء، اعتنق دعوة "الباب"، فلما قتل خلفه في دعوته، فاتهم بالاشتراك في مؤامرة لاغتيال ملك إيران انتقاما له، فاعتقل، وأبعد، ونزل ببغداد، ثم الآستانة ثم أدرنة، يواجهه العلماء في كل مرة، توفي بعكا سنة 1309 هـ [ix].

السابع والعشرون: ميرزا غلام أحمد القادياني المتمهدي ثم المتنبي المشهور في بلاد الهند، زعيم "القاديانية" ومؤسس نحلتهم. هندي كان يظهر الزهد والكرامات، خدم الحكومة الإنجليزية (أيام احتلالها للهند) مدة، واشتغل في أول أمره بمناظرة النصارى، ثم ادعى أنه المجدد ثم "المهدي" ثم المسيح ، فافتتن به خلق وكفره علماء زمانه، لا يزال له أتباع إلى اليوم، توفي 1326هـ [ix].

الثامن والعشرون: محمد بن عبد الله القحطاني من تلاميذ الشيخ عبد العزيز بن باز، ادعى أنه "المهدي" أثناء حادثة الحرم المكي في فاتح عام 1400، حيث قام هو وصهره جهيمان العتيبي وأتباعهما بمحاولة لقلب نظام الحكم واحتلال الحرم المكي في المملكة العربية السعودية ، فحوصروا وهزموا وقتل القحطاني في الاشتباكات [ix].

التاسع والعشرون: اللحيدي الحسين بن موسى بن الحسين اللحيدي نشأ على غير الصلاح، ثم غاب فترة فظه متنسكا مدرسا فوفد عليه الناس، ادعى بعد أزمة الخليج الثانية أنه جد "المهدي"، ثم ادعى

بعدها بأنه هو "المهدي" نفسه وأن الله عز وجل يوحي إليه بالرؤى، بدأ دعوته في الكويت ثم في الجزيرة العربية، أودع السجن ثم أخرج، له مؤلفات منها: بيان وجوب الاعتزال في آخر الزمان إلى أن يمكن المهدي خليفة الرحمن، ورفع الالتباس في تقرير عودة سيد الناس [ix].

الثلاثون: ناصر محمد اليماني لم أقف له على ترجمة، لكن يضع له أنصاره منتديات ومدونات ينشرون فيها مقالاته، وتعاليمه وأنه إنما جاء ليؤيد دعوته بالقرآن، ويستعمل أساليب الإعجاز فيه [ix].

المطلب الثاني: عوامل ادعاء المهدوية

الفرع الأول: العامل العقدي والسلوكي "المهدي" من المسائل العقدية، ومن الغيبيات، فلا جرم أن يتبوأ العامل العقدي والسلوكي موقعا مكينا من عوامل دعوى المهدوية، وبدلالة المدعين الذين سبقت بعض أخبارهم وأيامهم، نجزئ هذا العامل إلى:

أولا: التشيع الثقافة الشيعية مشبعة بذكر "المهدي"، بل إن "المهدي" من أرسخ أركان عقيدة الفرق المنتسبة للوعاء الفكري الشيعي[ix] ، فلا يبعد أن يطمح بعض معتنقي هذا الفكر إلى تقمص شخص "المهدي"، ولو مع لَيٍّ شديد للتعاليم لدى بعض الفرق الشيعية ممن يكون "المهدي" عندهم معروف العين، فممن ادعاها منهم القوهستاني والمشعشع –وهما من الاثني عشرية كما سبق–، وقد كان في ابن تومرت تشيع[ix]. وقد مر كيف انسلخ القوهستاني عن التشيع وطبق أحاديث "المهدي" عند أهل السنة على نفسه. وقد ادعاها كذلك جملة من الزيدية (الحسين بن قاسم، والمحيرثي، والفوطي) . وأما الغلاة منهم ذوو الخلفية الشيعية كعبيد الله وكالباب والبهاء، فإن أمر تأويل النصوص وتحريف التعاليم أيسر عندهم لما تجاسروا عليه مما هو أعظم.

ثانيا: التصوف والتنسك والرياضة من أحوال جملة من مدعي المهدوية التصوف والتنسك وما في معنى ذلك من من العزلة والرياضة والسياحة والمجاهدة والانهماك في العبادة، وقد تلبس بهذا العامل جملة من المدعين: ابن أبي محلي وابن قسي والباب والحلاج والقادياني والمهدي السوداني والجونبوري والقوهستاني.

وتفسير ذلك تأثير "السكر" الروحي وقسوة العبادة والعزلة على الصحة النفسية والعقلية للمدعي، وقد نُصّ على ذلك في أخبار ابن أبي محلي والباب [ix]، كما ادعى الحلاج –ضمن دعاواه–المهدوية في شطحاته. ولا يُغفل شدة تأثر أرباب التصوف الغالي أو الانغماسِ غير المحمود في العبادة المجهدة بالمنامات والكشوف، وقد تلقى جملة منهم المهدوية رؤيا أو مكاشفة[ix]، وذاك حال الملثم و اللحيدي، وللمتصوفة تفسيرهم –كذلك– لأحاديث "المهدي"، لاسيما ما ورد فيها أن الله تعالى يصلحه في ليلة[ix]، وخلاصة القول في هذا العامل الجزئي أن دعوى المهدوية راسخة في الثقافة الصوفية الغالية كرسوخها في الثقافة الشيعية، ولربما اجتمعتا كما في القوهستاني.

ثالثا: التمهيد لدعوى المسيحية والنبوة والألوهية قد لا يكون ادعاء المهدوية هو المقصود ابتداء، وإنما يمهَّد به لادعاء ما فوقه، لئلا يصدم أنصاره، وقد تدرج القادياني، فادعى المهدوية بعد المجددية، ثم الرسالة والنبوة، وقفى البهاء دعوى المهدوية بدعوى الرسالة فالألوهية.

وقد لا تكون دعوى المهدوية ذريعة إلى التدرج في الدعاوى، ولكن ثمرة لها، إذ يرى المتمهدي –في غمرة العجب– أن درجته أعلى من المهدوية، كما سيأتي في الآثار، ولربما اقترنت دعوتان، لاسيما في حالة من أكثر التخليط والشطح، كما هو حال الحلاج وابن طريف.

الفرع الثاني: العامل العرقي والمكاني لا يفوت المتدبر في أحوال مدعي المهدوية تراكم هؤلاء في أقاليم معينة، ومن أجناس محددة، فمن ذلك:

أولا: البربرية وبلاد المغرب العامل البربري المغربي شائع لدى مدعي المهدوية، فقد تمهدى من البربر في المغرب صالح بن طريف وابن أبي محلي والشرادي والسويدي وابن تومرت وبومعزة، ومن المغاربة في غير بلاد المغرب الفرياني، ومن غير البربر بنصرة من البربر ابن القط في الأندلس، ولم يجد عبيد الله أكثر من المغرب وقبائل البربر قابلية لدعوته ودعواه، لذلك وجه أحد داعييه إلى المغرب، فظفر، ولعل مرد ذلك إلى أمور منها:

-طبيعة العنصر البربري -حسب بعض الكتاب-، وسرعة انسياقه نحو الأدعياء، كما تثبته الوقائع التاريخية، وقد قال ياقوت الحموي في ذلك كلاما شديدا متحاملا فيه على البربر. [ix]، وأولى من هذا التحامل أن يقال أن البعد عن حواضر الإسلام وحداثة العهد بالإيمان وتفرق السكان في الجبال، ومزاحمة الأديان الوثنية وسلطان المشعوذين والسحرة، مع العائق اللغوي آنذاك، هو ما سبب رواج الجهالات والبدع، ونفاق سوق الأدعياء، كما هو حال صالح بن طريف مع برغواطة، وإلا فإن البربر وغيرهم من الشعوب إذا رباهم الإسلام، كانوا له حصنا وردءا، والتاريخ على ذلك شاهد، فإنه ما بطش بدولة برغواطة بعد ذلك إلا البربر من المرابطين [ix].

- كثرة الثورات وعدمُ الاستقرار في المغرب والأندلس، ومجاورتُهما للثغور، فيدعي بعض الثائرين المهدوية لغرض استقطاب الأنصار كما كان الحال لدى : عبيد الله ، وابن أبي محلي وبن أبي عمارة و الشرادي وابن تومرت السويدي وبومعزة في بعض أحواله، وابن القط وابن قسي في الأندلس.

-ولعل من الأسباب كذلك ما يُزعمه من أفضلية العنصر البربري، وما يُروى في ذلك من أحاديث[ix]، وقد وظف ابن تومرت هذا المفهوم لتعبئة الأنصار، وتهيئتهم لقبول تمهديه، بأن "المهدي" يكون من المغرب.[ix].

ثانيا: بلاد فارس والهند وما جاورهما من بلاد العجم بلاد فارس والهند منبت جملة من المتمهدين مما كان له شأن، فالفارسيون الذين ادعوها الباب والبهاء، والحلاج -فأصله فارسي-، والهنود وغيرهم من الأعاجم الذين ادعوها القادياني والجونبوري والقوهستاني، والظاهر أن مرد ذلك إلى أمور:

- ما سبق ذكره في فشو التمهدي لدى البربر من حداثة الإسلام والبعد عن حواضره

- فشو التشيع والتصوف الغالي لدى العجم والتأثر برياضة وأحوال الديانات المجاورة كالهندوسية والبوذية، كما في حالة القوهستاني من حيث التصوف والتشيع، والجونبوري والقادياني من حيث التصوف والرياضة، وقد مر أن التشيع والتصوف والرياضة من عوامل دعوى المهدوية.

-ويضاف إلى ذلك في العصر الحديث أطماع المستعمرين في بلاد الهند وسعيهم لخلق الفتن والبدع في الدين الإسلامي وتفريق الكلمة كما كان الشأن مع القادياني [ix].

ثالثا: اليمنية يتكرر ذكر اليمن في مواطن مدعي المهدوية، حيث ادعاها من اليمنيين: الحسين بن القاسم والمحيرثي والفوطي وناصر اليماني، وقد أرسل عبيد الله أحد داعييه إلى اليمن، ولعل مرد ذلك إلى الثقافة الشيعية (الزيدية) الفاشية في اليمن، وكل من ادعاها من اليمنيين زيود (ما خلا ناصر اليماني فلم أقف على مذهبه).

رابعا: العراق والعراق مهد جملة من المتمهدين (الحلاج والملثم وصاحب الزنج وبليا والمشعشع)، ولا جرم، فقد كانت المدن العراقية كبغداد والبصرة حواضر تعتلج فيها الثقافات والأفكار، ولكل ساقطة فيها لاقطة، فما من دعي إلا ويجد له أنصارا ذوي عدد، لذلك كانت لدعوى المهدوية —في العراق- غالبا نتائج مأساوية كما سيحلل في "الآثار".

الفرع الثالث: العامل السياسي السياسة والطموح إلى السلطة، وشهوة القيادة، والحاجة إلى تحشيد الحشود للغاية المحمودة أو المرذولة أمّ عوامل دعوى المهدوية، ويجزأ هذا العامل إلى:

أولا:الجهاد في سبيل الله يتلبس بعض قادة الجهاد في العالم الإسلامي بالمهدوية، لتعبئة الأنصار، ورفع المعنويات وتحديد الأمل لاسيما في حالة القنوط الجماعي والتسليم للأعداء وتربص الناس بحدث خارق يقلب الموازين، وتدعى المهدوية كذلك في تلك الظروف نشودا لوحدة الصف وإلغاء الزعامات المنافسة التي تشتت الشمل، فينبغي أن يبايع الكل "المهدي".

فمن عوامل ادعاء المهدي السوداني وابن أبي محلي وابن القط وبومعزة للمهدوية جهاد الكفار المتغلبين على أراضي المسلمين، وقد أبلى هؤلاء المتهمدون بلاء عظيما في ذلك.

ثانيا: الثورة على الحكم القائم وطلب السلطة وهو أبرز العوامل، وتمتزج فيه السببية بالمسببية، فيدعي المهدوية ليحشد الأنصار، ويفيض القداسة على حزبه، ويرى المتمهدي أن من نتائج مهدويته —ضرورة- الثورة والحرب، لأن "المهدي" قائد عسكري للأمة ينبغي أن يضع السيف على الرقاب كونا وشرعا،

و"المهدي" حاكم ينبغي أن يبايع، و"المهدي" هو الذي يملأ الأرض عدلا كما ملأها حكام وقته جورا، وهذا العامل قائم بدعوى التمهدي لعبيد الله وابن أبي محلي وابن القط وابن قسي والبهاء والحسين بن القاسم وابن أبي عمارة والفرياني، والفوطي و الشرادي وبليا وتمرتاش وصاحب الزنج وابن تومرت و القحطاني والمشعشع والسويدي، وهم جمهور المتمهدين.

ثالثا:خدمة مصالح أعداء الإسلام قد يكون من عوامل التمهدي ابتداء أو تشجيعا العمالة وخدمة مصالح أعداء الإسلام، وهي تهمة معصوبة برأس "القادياني"، الذي ثبط عن الجهاد المستعمر الإنجليزي[ix]، ورمي بها اللحيدي الداعي إلى إبطال الجهاد [ix].

الفرع الرابع: عوامل أخرى

أولا: استغلال الأحداث الجسام قد يكون المسرع على ادعاء المهدوية، استغلال الأحداث الجسام مما له صدى إعلامي بحيث يتوصل مدعي المهدوية إلى الشهرة أو يعضد دعوته بالأدلة والبراهين، وغالبا ما يكون ذلك في المتمهدين المعاصرين، وقد أعلن القحطاني تمهديه وهاجم الحرم يوم بداية القرن الهجري الجديد 1 محرم 1400 هـ [ix]، كما جعل اللحيدي من دلائل تمهديه الدخان المنبعث من آبار النفط المقصوفة بالكويت إبان حرب الخليج[ix].

ثانيا: إغراء الأنصار على التمهدي يشجع على دعوى المهدوية ويوطئها إغراء الأنصار للمدعي، وتزكيتهم لمهديهم، حتى يقرها ويقبلها، وقد كان التعايشي هو من أغرى المهدي السوداني على دعواه[ix]، وقد كان أهل محمد بن عبد الله بن الحسن يسمونه بالمهدي، فلعل ذلك مما وطأ له دعوى المهدوية بعدها.

ثالثا: الاضطراب العقلي قد يكون الاضطراب العقلي بسبب كثرة الرياضة أو إجهاد العقل سببا مباشرا أو مسهلا لدعوى المهدوية، وقد نصوا عليه في تمهدي الملثم، والمحيرثي، بسبب الإجهاد الفكري، وأثرت الرياضة في عقل الباب.

رابعا: توافر بعض خصال "المهدي" في المدعي يتوهم المدعي توافر بعض صفات "المهدي" في شخصه، لاسيما مواطأة الاسم فيدعي المهدوية عن حسن نية وعقيدة، وقد ذكر من أحوال محمد بن عبد الله بن الحسن صلاح وعلم، فرأى نفسه "المهدي" وواطأه على ذلك فضلاء كابن عجلان[ix]، وكان القحطاني متسننا منخرطا في حلقات العلم ناشطا في المجال الدعوي، فخيل إليه أنه "المهدي"[ix]، وتوافرت مواطأة الاسم للملثم والمهدي السوداني كذلك، وقد يتطلب المتمهدي هذه المواطأة بتكلف عجيب [ix].

ولربما تكلف المتمهدي تحقيق بعض غيرها من الخصال، فقد ادعى النسب الشريف (أو اتهم بادعائه): صاحب الزنج، وعبيد الله وابن تومرت، وابن أبي عمارة، و من هذا القبيل تكلف ادعاء المهدوية من الحرم لدى المقام، فقد أعلن الباب تمهديه عند مقام إبراهيم[ix]، وأعلن القحطاني تمهديه ودعا إلى بيعته بين الركن والمقام طمعا في تحقق ما ورد في بعض الأحاديث [ix].

خامسا: الشعبدة والكهانة والتنجيم تكرر تلبس من ادعى المهدوية بالتنجيم والشعبدة والتمخرق، كصاحب الزنج وبليا وابن تومرت والحلاج ، وإذا تجرأ المدعي على هذه الموبقات سهلت عليه دعوى المهدوية بل وما هو أشد منها، وقد يبتلى المدعي بالاطلاع على ما يخاله نبوءة يخيل إليه فيها أنه "المهدي" كما وقع لابن تومرت[ix] والفوطي في زعمهما الاطلاع على "الجفر".

سادسا: النبوغ النبوغ والتميز عن الأقران صفة تكاد تكون مطردة في مدعي المهدوية ، فإما صلاح في الدين كحال محمد بن عبد الله بن حسن، وإما شجاعة كتمرتاش وصاحب الزنج، وإما قوة حجة وتأثير كابن تومرت والقادياني والمهدي السوداني، وإما ذكاء خارق وعلم فائق كالمحيرثي والملثم، وهذا النبوغ دافع إلى للتمهدي ويهيء لقبوله من الأنصار.

المطلب الثالث: آثار ادعاء المهدوية

الفرع الأول: آثار ادعاء المهدوية على المدعي

أولا: تسلُّط النكال والعقاب تسلط أصناف النكال على مدعي المهدوية قتلا وسجنا ونفيا، وذاك متوقع، لمباداة القوم المنظومة السياسية والفكرية بالخلاف، ولاتباع معظم المدعين سبيل المعارضة المسلحة المختومة –غالبا– بقتل المتمهدي ، فقد قتل –في المعارك أو اغتيالا– ابن أبي محلي وابن القط وابن قسي والحسين بن القاسم وابن أبي عمارة والقحطاني ومحمد بن عبد الله بن حسن والسويدي وصاحب الزنج، وأعدم الحلاج وبليا والباب، وسجن اللحيدي والفرياني والملثم، ونُفي البهاء.

ثانيا: التوبة والإلقاء باليد قد يستسلم مدعي المهدوية خوفا من العقاب وإثر هزيمة لحقت به وبأتباعه، كالشرادي وابن قسي والملثم، ولربما عاود الخلاف متمهديا أو من غير تمهد، كابن قسي، ومنهم من يعود إلى حظوته كما كان قبل الخلاف كالشرادي الذي عفي عنه وولي.

ثالثا: ظهور كفاءات وتحقق إنجازات من نتائج دعوى المهدوية تفتق كفاءات وتحقق انتصارات في خضم جو من الضلالات، وبروز قيادات للمسلمين أزرى بها التمهدي، وخسرت الأمة عطاءها كله أو بعضه، فقد سار ابن أبي محلي في دولته بالعدل وجاهد، وأظهر ابن القط شجاعة في مواجهة الإفرنج، وعصف السوداني بالوجود الإنجليزي في السودان، وأبلى بومعزة في توحيد القيادات لجهاد الفرنسيين، واشتهر ابن تومرت بالكياسة وحسن السياسة وأرسى عَمد دولة كان لها شأن.

رابعا: التدرج في الضلال. من سيما المهدوية سببا وأثرا التدرج في الدعاوى، والإغراق في التمخرق، وهو حال القادياني والبهاء في أطوارهما، ولعل ذلك لجسارة مدعي المهدوية على ما عداها أو جراء الإصابة بـ"جنون العظمة" الذي يهيئ له أنه مرتبته أجل.

الفرع الثاني: الآثار السياسية لدعوى المهدوية

أولا: الإخلال بالاستقرار السياسي والأمني "الثورة" والسعي إلى قلب نظام الحكم قرينان لدعوى المهدوية، وهذه الثورات أخلت بالاستقرار السياسي والأمني للبلاد التي كانت محلا لها، معقِّبة مجازر عظيمة وخرابا كبيرا، كما كان شأن بليا وصاحب الزنج والسويدي ، ونتج عن ثورة محمد بن عبد الله بن حسن أعمال انتقامية من الحكام العباسيين على أهل المدينة، وقد ذاق المسلمون وبال تسلط عبيد الله وذريته دهرا.[ix].

ثانيا: إقامة الدول والكيانات وقلب بعض الأنظمة القائمة: أثر مدعو المهدوية في التاريخ الإسلامي بإنشائهم للدول والكيانات، بالانشقاق عن السلطات المركزية، أو بقلب أنظمة الحكم القائمة، فقد تسلطن ابن أبي محلي على مراكش، واستبد بليا وصاحب الزنج بالبصرة، وهيأ ابن تومرت لدولة الموحدين، واستقل المشعشع بأراض من العراق، وأقام عبيد الله دولة كان لها شأن، وقد كان لهذه الكيانات والدول دورها في تفريق كلمة المسلمين وإشغالهم عن التصدي لأعداء الإسلام.

الفرع الثالث: الآثار الفكرية لدعوى المهدوية

أولا: توافر الأنصار والأتباع يلقى مدعو المهدوية قبولا، وتتبعهم حشود، وينصرهم أنصار مخلصون لقضيتهم، وهذا حال جمهورهم: عبيد الله وابن أبي محلي وابن القط والحسين بن القاسم وابن أبي عمارة والفرياني والقادياني والباب والبهاء والشرادي وبليا وبومعزة وصاحب الزنج وصالح بن طريف وابن تومرت والسوداني ومحمد بن عبد الله بن حسن والجونبوري والمشعشع والقوهستاني واليماني والسويدي والقحطاني. وهذه النصرة أدناها التصديق، وقد تتعدى إلى الجدال عن "المهدي" والمنافحة عنه، والقتال بين يديه، والموت في سبيله، ومرد ذلك كله إلى العقيدة فيه، ولقوة سلطان المتمهدي على النفوس لاسيما في مظان انتشار الجهل وقلة العلم، أو استيلاء القنوط على القلوب وتعلق الآمال بشخصه.

ولربما قويت الشبهة في مدعي المهدوية حتى يكون من أنصاره بعض أهل العلم والفقه، فقد كان محمد بن عجلان من الفقهاء النساك، فلما قتل محمد بن عبد الله بن الحسن, أتى والي المدينة بابن عجلان, فسبه,

وأمر بقطع يده. فقال العلماء: أصلح الله الأمير, إن هذا فقيه المدينة, وعابدها, وشبه عليه أنه "المهدي"" فتركه[ix] . وهؤلاء قد يدومون على ولائهم لمهديهم ولو بعد هلاكه، كما هو شأن أتباع القادياني والباب والبهاء والسوداني والجونبوري وصالح بن طريف والقوهستاني، ولربما ادعوا رجعته بعد موته ، كما كان لدى أتباع محمد بن عبد الله بن الحسن[ix]، وابن أبي محلي، و ابن طريف.

ثانيا: الجدل الفكري وإنشاء النحل من أظهر نتائج دعوى المهدوية الجدال الذي تمخضه، وعقد المناظرات وإطلاق أحكام التكفير والتضليل ونشر الكتب في هذه القضية، كل ذلك من المتمهدين أو من أنصارهم، فقد ألف الملثم، والباب، والقادياني، واللحيدي، واصطدم عبيد الله المهدي والحلاج والجونبوري والبهاء وابن محلي بعلماء زمانهم، ويشتد النزاع بين المتمهدين وخصومهم إن أنشؤوا نحلة جديدة مذهبا كان أو دينا كالباب والبهاء والقادياني وابن تومرت.

ثالثا: إنكار "المهدي"من نتائج التمهدي –فكريا– إنكاره بعض العلماء والباحثين للمهدي استدلالا بالآثار الوبيلة لدعوى المهدوية[ix]، وسعيا لاستنهاض همم المسلمين لمواجهة التخلف دون التربص بخروج المنقذين، [ix].

خاتمة:

ذيل هذا المقال، توصيات معتصرة من أحوال المتمهدين، وعوامل التمهدي وآثاره، لتعصم الأمة من وبال هذه الدعوى، وتنشغل بتحصيل أسباب النصر والتقدم، حتى يخرج "المهدي"الحق، فيكمل به ظهور الأمة:

1–بث العقيدة الصحيحة المتعلقة بالمهدي، وإفشاؤها، وترجمتها ميسرة بلغات الأقوام الذين فشت فيهم هذه الدعوى –تاريخيا– لئلا يتجرأ الأدعياء، ولا يُغتر بمن ادعى، مع إشاعة أخبار المتمهدين وإفسادهم وسوء عاقبة هذه الدعوى.

2–مواجهة الغلو والتنطع في الدين، وحراسة الملة من كل زيغ، لاسيما التشيع، والتصوف الغالي، والسحر والشعبدة، والتنجيم، وتعاهد المتدينين الجدد لئلا يفتنوا ادعاءً للمهدوية أو اتباعا لمن يدعيها من الزائغين والمتنطعين.

3-إيلاء مدعي المهدوية –إن كان له شأن في مجتمعه- حقه من الاهتمام، ومواجهته في مبتدأ أمره قبل أن ينفرط عقده.

4-السير –في الأمة- بالعدل، وفتح قنوات الحوار مع المتظلمين، والتعامل بحكمة مع البغاة والساخطين، قطعا لدابر استغلال الاختلالات في نظام الحكم من المدعين للمهدوية ليثوروا.

5-تبصير الأمة بأسباب النصر والظهور والتمكين، وأنها غير متوقفة على ظهور "المهدي"، بل يكون "المهدي" من ثمرتها وتكميلا لها في عصر من العصور.

6-قيادة العلماء للأمة في ربانية وحكمة في النوازل والأحداث الجسيمة، وبيان سنن الله فيها، حتى لا يستغلها الخرافيون لادعاء المهدوية.

7- تأطير النابغين، وتوجيه طموحهم إلى ما يصلحهم ويصلح أممهم.

مَسَّكَنَا الله تعالى بالكتاب المتين، وبسنة المصطفى الأمين صلى الله عليه وسلم، وبمنهج الصالحين المهديين، وسبحانك اللهم بحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.